المحاضرة الرابعة: الدولة الفينيقية: (146-880) قبل الميلاد

تسمية وأصول الفينيقيين:

أ_أصل التسمية: فينكس phoenix هي كلمة يونانية اطلقت على الفينيقيين تعني اللون الأحمر الأرجواني لشهرتهم في صباغة المنسوجات بهذا اللون الذي كان يستخرج من حيوانات بحرية.

وكما يذكر الدكتور: عبد الحفيظ فضيل الميار♦ بأنّه: أطلق الإغريق على سكان الساحل اللبناني وشمال فلسطين اسم (الفيفيقيين) (phoenix) وهي تعني اللون الأرجواني(purple) نسبة على الشهرة التي عرف بها هذا البلد في صناعة الأصباغ والملابس الأرجوانية اللون[1].

وجاء ذكر هذه التسمية عند الشاعر الإغريقي هوميروس عندما وصف الفينيقيين بالمهارة في التجارة وركوب البحر والصناعات اليدوية[2].

ب_أصول الفينيقيين: هم شعب سامي، عرفوا بالكنعانيين، يعود موطنهم الأصلي لمنطقة شبه الجزيرة العربية، التي انتقلوا منها في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد واستقروا بالساحل السوري، واشتهروا فيما بعد بالفينيقيين، في مساحة ضيقة تمتد من 200 كلم شمال جنوب و 20 كلم عرضا وهي مساحة لا تصلح للزراعة، لذلك مارسوا النشاط التجاري وقد احتفظوا بتسميتهم الأصلية كنعانيين حتى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد،" وهي مشتقة من كلمة كناجيknaggi التي تعني الصباغة الأرجوانية أي أحمر اللون "أومن الفعل **كنع** التي تعني الأرض المنخفضة. "وفي بداية القرن 12 ق.م أطلق الإغريق على الكنعانيين الساكنين غرب سوريا والذين هاجروا معهم إسم فينيقيا المشتق من كلمة فينكس phoenix ومعناها الشعب الأحمر وذلك نسبة إلى الصبغة التي استخرجوها من الحيوانات البحرية التي تعيش قرب سواحلهم ".

يعتبر الفينيقيون أمة سامية هاجر أبناؤها من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام و استقروا في مدينة صيدا و صور في سوريا و في سنة 880 ق.م تمكنوا بسبب الصراعات الداخلية في مدينة صور من إقامة دولة قرطاجة شمال أفريقيا و التي تحولت فيما بعد إلى دولة بحرية قوية تسيطر على باقي دول شمال إفريقيا و الاندلس تحمي الفينيقيين المتواجدين في صور و شمال افريقيا وصقلية و الاندلس من الرومان و اليونانيين و كان هدفهم إقامة مراكز تجارية و التعاون مع سكان المنطقة فكان حكمهم مسامحا، متساهلا مع الأهالي و قد انهارت دولة قرطاجة سنة 46 للميلاد بعد صراع طويل بين الجنس السامي والآري، أي بين الجنس الإفريقي الآسيوي والأوروبي، ويمكن تلخيص أسباب سقوط قرطاجنة فيما يلي:

* الانقسامات السياسية والمصالح المتضاربة.
* الاهتمام بالتجارة وكسب المال وإهمال القضايا الحيوية للأمة.

♦ دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن، وأستاذ التاريخ القديم كلية الآداب جامعة الفاتح.

[1] عبد الحفيظ فضيل الميار، **الحضارة الفينيقية في ليبيا**. ليبيا: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001، ص 95.

[2] المرجع نفسه.

*اعتماد الدولة على جيش مكون من مرتزقة باحثين عن الغنائم على حساب مصالح الدولة.
* المعاملة السيئة من طرف الطبقة الارستقراطية للمواطنين في الفترات الزمنية الأخيرة قبل انهيار الدولة.

فالفينقيين أمة سامية احتكروا الإبحار والتجارة، الأمر الذي دفعهم لتأسيس مدن على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط بغية الترويج لسلعهم والوصول إلى شواطئ إسبانيا، حيث أسسوا لحوالي 300 مركز تجاري و 200 مدينة، بغرض تقوية علاقتهم بسكان شمال إفريقيا، نذكر أهم هذه المدن:

-الجزائر: هيبون، القل، جيجل، بجاية، شرشال...

-في المملكة المغربية: طنجة، مليلية، أغادير....

-تونس، بنزرت، سوسة...

كان الهدف من تأسيس دولة قرطاجة في شمال افريقيا ذو بعد اقتصادي بحت من أجل اقامة مراكز تجارية و التعاون مع سكان المنطقة و لم يكن الهدف اخضاع و احتلال الموانئ في المنطقة، و قد انهارت دولة قرطاجنة سنة 146 ق م[1].

ومن الطبيعي أن يستمر الفينيقيون الذين جاءو إلى شمال إفريقيا في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم التي ألفوها في بلادهم الأصلية حيث تشير الشواهد الأثرية البونيقية إلى مكانة المرأة ودورها ووضعها المتميز غير المهمش في الحياة الاجتماعية والعائلية[2].

كما أسسوا لدولتهم بشمال إفريقيا "قرطاجة " بحدود العام 880 ق م أو 814 ق م (التاريخ غير مؤكد بين الأدبيات التاريخية) لقد حدث هذا التأسيس بعد صراعات داخلية، شهدتها عاصمتهم التاريخية الثانية "سور"، لتكن بذلك "قرطاجة" دولة قوية ستسيطر على مدن وشواطئ البحر المتوسط لقرونٍ من الزمن، كما أن الشيء المميز للحكم الفينيقي بالشمال الإفريقي، قد كان متسامحا مع الأهالي من القبائل البربرية، الأمر الذي وطد علاقة الطرفين ببعض، غير أن الدولة التي أسسها" البونيقيين" (التسمية الجديدة للفينقيين بعد استقرارهم بشمال إفريقيا " ستنهار بحلول العام 146 ق م جراء الصراع المستمر بين العنصر الآسيوي والإفريقي والعنصر الأوروبي- لتنتقل- زعامة العالم القديم من يد القرطاجيين وسكان شمال إفريقيا إلى يد الرومان.

العلاقات السياسية بين حكام قرطاجنة وحكام الجزائر:

لقد ساهم عنصر الانتماء الى الجنس السامي بينهما على خلق تفاهم و انسجام بين حكم البربر و حكام قرطاجنة، كما كانت العلاقات وطيدة نظرا لحرص حكام قرطاجنة في استمالة زعماء و امراء القبائل و العشائر المتواجدة في الجزائر و التقرب منهم من خلال المصاهرة و تمكينهم من الحصول على البضائع

[1] غنية هاني، « محاضرات في تاريخ الجزائر السياسي»، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة العربي التبسي تبسة، 2021-2022، ص 06.
[2] عبد الحفيظ فضيل الميار، مرجع سابق، ص 134.

و تدريبهم على صنع بعض الأشياء التي يحتاجونها، و عدم السعي للتدخل و الاستيلاء على الإمارات البربرية.[1]

توطدت العلاقات السياسية بين الطرفين بسبب الرغبة الصادقة للقرطاجيين في استمالة زعماء وأمراء القبائل والعشائر في الجزائر حيث لم يحاول حكام قرطاجة أن يستعمروا ويسيطروا على القبائل البربرية بل استعملوا الدهاء السياسي عن طريق المال والمصاهرة والتجارة البينية.

دفعت قوة روما و قرطاجنة بسكان شمال افريقيا إلى توحيد القبائل الموجودة بالمنطقة و يخلقوا القوة القادرة على مواجهة الخطر الروماني و التوسع القرطاجي و تبرز مجهودات التوحيد فيما قام به **ماسينيسا** (149/201) (قبل الميلاد) لإقامة دولة بربرية قوية في شمال افريقيا؛ و قد استعان بالرومان للتغلب على القرطاجيين وإقامة دولة النوميديين بقسنطينة (148/202) (قبل الميلاد) مكنته هذه الفترة من بناء دولة قوية تتمتع بعملتها الخاصة باسمه و علاقات تجارة قوية مع أثينا و رؤوس و مارسيليا ثم قام بتقسيم إداري للدولة النوميدية، اعتمد على المقاطعات الإدارية التي يرأسها رئيس يسمى **أقليد** و كان لديه جيش يتكون من 50 الف جندي تخشاه روما و قرطاجة؛ يُعتبر التحالف الذي قام به ماسينيسا مع روما ضد قرطاجة من بين الأخطاء الاستراتيجية التي وقع فيها؛ إذ عمدت روما إلى إضعاف الطَّرفين من خلال تشجيعهما على الحرب فابتلعت روما قرطاجة سنة 146 قبل الميلاد بعد أن تخلَّصت من ماسينيسا سنة 148 قبل الميلاد.

«إنَّ الأمة إذا غُلبت وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناء».

ذلك قانون تاريخي؛ بل بديهة حضارية تصير إليها كل أمة أو دولة نشأت في محيطها الطبيعي واشتد عضدها فيها، ثم توسَّعت لأسباب ذاتية على حساب غيرها من الشعوب لتنهب خيراتها، وتحتل أراضيها، وتعتدي على مقوماتها الوطنية. ينتسب الفينيقيون إلى العنصر الكنعاني السامي الذي ينتمي إليه العرب، «كانت لغتهم عربية محرَّفة قليلًا عن العربية الفصحى، وتشبه كثيرًا العامية المستعملة في بلادنا اليوم»[2].

أولا: التعايش الأمازيغي الفينيقي:

هاجرت الأصول الأولى للفينيقيين كما ذكرنا من شبه الجزيرة العربية، واستقرت في مدينة صيدا ومدينة صور[3]، وسُمِّيت الأراضي التي استقرَّت بها بـ «فينيقيا». أبْحَر الفينيقيون بأعداد كبيرة من فينيقيا، واستقروا بسواحل البحر الأبيض المتوسط من واجهة شمال إفريقية في القرن 12 ق.م، وأسسوا الموانئ في بادئ أمرهم على طول الساحل البحري، وطوَّروا نشاطهم التجاري، وأنجزوا ورشات لصناعة السفن وإصلاحها. لم يكن استقرار الفينيقيين بشمال إفريقية استعماريًّا مضطهدًا لسكانه الأصليين بقدْر ما كان استقرارًا له طابع اقتصادي وتجاري، استطاع الفينيقيون من خلاله توطيد علاقاتهم بالسكان وإدماجهم في الحركة التجارية. ولم يسجل التاريخ أي حملة ضد السكان المحليين مفادها اضطهاد الأمازيغ وتصفية قياداتهم مثلما فعل

---

[1] غنية هانى، مرجع سابق، ص 06.

[2] أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**. المطبعة العربية، 1931، ص 06.

[3] عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 09

الرومان من بعدهم، ولعل ذلك يرجع إلى الأصل المشترك بين الفينيقيين والأمازيغ، وأنَّ اللهجة السامية تشملهما، ولا ريب وأنَّ هذه اللغة القرطاجنية قد مهَّدت السبيل إلى سيادة اللغة العربية بهذه الديار.

كان أول ما أسَّس الفينيقيون من المدن قرطاجة أو قرطاجنة سنة 814 ق.م. وهي في لغتهم «قرت حدشت» ومعناها: القرية الحديثة، وبمصطلح عصري: المدينة الجديدة. ونظرًا للطابع الاستراتيجي في الميدان التجاري لبعض المناطق النوميدية، أنشئوا بها مدنًا، مثل: عنابة Rigius، وسكيكدة Risicada، وقسنطينة Cirta، وجيجل Ighilgili، وبجاية Saldae، والجزائر العاصمة Icosium، وإيول Iol (شرشال)[1].

أسَّس الفينيقيون مدينة الجزائر (إيكوسيم) حوالي القرن 06 ق.م، وينسب بعض المؤرخين تسميتها للدلالة على العشرين من حاشية هرقل، وقيل: نسبة إلى «جزيرة النورس» عندما حوَّلها الفينيقيون إلى ميناء تجاري هام باقتراح من «هارودين» تحت حكم يوبا الأول.

بولوغين إن صانها فيرموس وحازت إكوسيوم أقصى المرام

تعود تسمية النوميديين إلى الكتابات التاريخية الأولى لديودور الصقلي التي ذكر فيها أن النوميديين شاركوا في حروبٍ جرَت في نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، وهي نسبة إلى «رحل» Numidae. ولقد قطعت قرطاجنة صلاتها بفينيقيا في الوقت الذي تدهورت فيه تلك الجمهورية الآسيوية، وسقطت فيه مدينة صور تحت ضربات بختنصر الفاتح الكلداني (561–604 ق.م)[2].

توجَّس الفراعنة المصريون خِيفةً من النظام القَبَلي الذي عُرف به الليبيون قديمًا فأعدوا له عُدة المواجهة والتصدي؛ فقد سجل التاريخ حملة في حوالي 1250 ق.م لرمسيس الثالث ضد هذه القبائل من الماشواش والتيمحون والزوتمار والتاحنون والكلاك لما حاولت غزو مصر. قُيدت بعض أحداث هذا الصراع في شكل رسوماتٍ جداريةٍ في معبد مدينة «هابو» لأسرى الشعوب الليبية تقدِّم قرابين للإله آمون، وقد ظهروا بضفائرَ طويلةٍ مائلةٍ على العنق، وحسب هيرودوتس كانت قبائل الأوزاس Auses والماكسياس Maxyes ذوو ضفائر على الجانب الأيمن من رءوسهم. ارتبطت قرطاجة بروما بمعاهدتين: الأولى في سنة 509 ق.م، والثانية سنة 348 ق.م تعطي لقرطاجة الحقَ في احتكار التجارة للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وألزمت الرومان وحلفاءهم بعدم تعاطي التجارة على شواطئها قبل أخذ إذنٍ من قرطاجة.

ثانيًا: ثورة النوميديين على قرطاجة

لم تستمر العلاقة الحميمة بين السكان المحليين والفينيقيين طويلًا؛ فبعدما تأسَّست قرطاجة وانفصلت عن فينيقيا وأصبحت قوة عسكرية في المنطقة ومركز إشعاع فكري وثقافي واقتصادي وسياسي، ظهرت بوادر الغلظة على السكان الأصليين وسوء معاملتهم وإثقال كاهلهم بالضرائب، فثار النوميديون على قرطاجة

---

[1] [د.ص.م]، « ملحمة الجزائر: شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا»، متوفر على الرابط: https://bit.ly/3RNbR28 بتاريخ: 2022/10/08.

[2] المرجع نفسه.

وقاموا بثورات أبرزها التي وقعت سنة 396 ق.م و 379 ق.م تحت إمرة الإغريق تمهيدًا للحروب البونيقية الأولى (363–241 ق.م).

خلال الحرب البونيقية الثانية 218–202 ق.م، وكردةِ فعلٍ ضد القائد القرطاجي حنبعل، عيَّنت روما القائد العسكري سكيبيون الإيميلي Scipion Emilien قنصلًا عامًّا لروما سنة 206 ق.م، وشنَّ حملة عسكرية واسعة للبحث عن حلفاء بتفويضٍ من مجلس الشيوخ الروماني ضد قرطاجة، حاول على إثرها، في بداية الأمر، كسب مودة سيفاكس Syphax ملك نوميديا الغربية سنة 206 ق.م أو المازيسيليا: نسبة إلى قبائل المازيسيل الذين ظهروا كقوة في إفريقية منذ أواخر القرن الثالث ق.م غير أنه رفض العرض، وفضَّل التحالف مع قرطاجة بسبب العلاقة الأسرية التي تربطه بالبونيقيين، استطاعت روما مدعومة بملك نوميديا الشرقية **ماسينيسا Massinissa** هزيمةَ الجيش القرطاجي بزاما، أُلقي القبض فيها على سيفاكس سنة 203 ق.م، تُوفي بعدها سيفاكس بحوالي ثلاث سنوات؛ أي سنة 200 ق.م.

وخلوا سفاكس يحكي لروما مدى الدَّهر كيف كسبنا الرهانا

وكيف غدا ظافرًا ماسينيسا بزامة لم يرضَ فيها الهوانا

ثالثًا: ماسينيسا الملك النوميدي (وُلد سنة 238 ق.م، وتوفي سنة 148 ق.م)

كان ماسينيسا أعظم ملوك البربر شأنًا وأكبرهم سلطانًا، من العائلة الماسيلية حكمت أربعة أجيال، واشتهر بالقوة ورجاحة العقل وسداد الرأي في الحكم. **فسَّر مارسيي** معنى كلمة ماسينيسا بعد تقسيمه إلى مقطعين هما «ماس» و«إناس» فقال: إنَّ معناهما باللغة البربرية: «سيد» «القوم»[1].

دعوا ماسينيسا يردِّد صدانا ذرُوه، يخلِّد زكى دمانا

وكم ساوموه، فثار إباء وأقسم أن لا يعيش جبانا

وألهمه الحبُّ نيلَ المعالي وقد كان مثلي يهوى الحسانا

كان تحالف ماسينيسا تحالفًا استراتيجيًّا مع روما بدافع الاستقلال عن قرطاجة والحيازة الكاملة على نوميديا بما فيها الشرقية والغربية، لكن ما خبأته روما لماسينيسا من دسائس هو ما جعله زعيمًا أمازيغيًّا حرًّا. أراد ماسينيسا أن تكون استعادة سيرتا استعادةً سلميةً بعد أسرِ سيفاقس، فتأتَّى له. وقد رفض ماسينيسا أن تُؤسر زوجة سيفاكس سوفونيزيا القرطاجية من قِبَل الجيش الروماني. و«سوفونيزيا» هذه هي ابنة أزدروبعل، وقد قام أبوه جسكون بتزويجها إلى سيفاكس بدون علمه حسب رواية «ديوكاسيوس».

ومَن صنعتْ روحه سوفونيزيا جديرٌ بأن يتحدَّى الزَّمانا

تغذيه حبًّا وفنًّا وعلمًا وتنبيه ما قد يكون، وكانا

[1] [د.ص.م]، « ملحمة الجزائر: شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا»، مرجع سابق.

لكن سرعان ما قتلها بدسِّ السُّم لها تعبيرًا منه لكسب ثقة الرومان، ودليلًا لقطع كل الأوصال التي قد تحُدُّ من طموحه في استرجاع ممتلكاته، وفي روايةٍ أخرى، أن « سوفونيزيا انتحرت بتجرُّعها السُّم، وموت الشرف خير من حياة المذلة والعار».

استطاع ماسينيسا بعد معركة زاما أن يوحِّد نوميديا، وأصبح بموجب العهد الذي كان بينه وبين روما مَلِكًا على كامل نوميديا في سنة 152 ق.م، وعُقدت على إثرها معاهدة تمَّ بموجبها التنازل عن قرطاجة لروما سنة 201 ق.م. من العيوب التي تُحسب على ماسينيسا، تحالفه مع روما مقابل «إعطائه الأراضي القرطاجنية التي كانت متاخمة لدولة نوميديا».

ازدهرت نوميديا الموحَّدة في عهد ماسينيسا وأصبحت أنموذجًا في الصناعة الحربية وفي التمويل الذاتي من المحاصيل الزراعية، وأضحت تصدِّر القمح والشعير وموادَّ أخرى لروما، وامتد نفوذها من طبرقة شرقًا حتى نهر ملوية غربًا. ازدهرت الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية في ظل النظام السياسي الذي رسمه ماسينيسا لنوميديا، وتعزَّز استقلالها، مما أثار هواجس ومخاوف روما، وأجبرها على التخلُّص من ماسينيسا. تُوفي ماسينيسا سنة 149 ق.م بسيرتا قسنطينة.

أسفرت الحروب البونيقية الثالثة (149–146 ق.م) عن سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، واستطاعت روما بذلك احتلال إفريقية.

ولذلك يرى الأستاذ عمار بوحوش بأنه: " يعاب على سياسة "ماسينيسا" أنّه تحالف مع روما ضدّ قرطاجنة على أمل أن تكافئه روما بإعطائه الأراضي القرطاجانية التي كانت متاخمة لدولة نوميديا. وبالفعل فإنّ روما قد شجعته على إضعاف قرطاجنة وعملت على إضعافه عن طريق محاربة قرطاج لدولة نوميديا. وفي نهاية المطاف استطاعت روما أن تبتلع دولة قرطاجنة سنة 146 ق.م. وهكذا جاء الاستعمار الروماني لشمال إفريقيا "[1].

[1] عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 13.